مقدمة

منذ أقدم العصور يحتل النظام التعليمى ـ أيامًا كان حجمه ومؤسساته النظامية وغير النظامية ـ موقعاً هاماً بين مختلف النظم المجتمعية الأخرى . ومرد هذا الموقع المتميز يعود إلى ما ينشده المجتمع ، مع مختلف توجهات فئاته ـ من هذا النظام من دور فى صياغة أوضاعه وتشكيل أفراده من حيث الفكر والوجدان والسلوك والعلاقات التى تحدد توقعات أفراده وشرائحه من خلال التعامل فيما بينهم . وهذا هو المقصود بالتوظيف الاجتماعى للتعليم ، بمعنى أن الدولة المعاصرة هى التى توجه مسيرته وآلياته ، فضلاً عن مضامينه وفلسفته ؛ لكى تتحقق نوعية المواطن المنشود ، سواء كان هذا المواطن المنشود تعزيزاً وترسيخاً لنمط مقوماته السائدة حالياً ، أم كان مغايراً لذلك النمط مغايرة تتباين بدرجات متفاوتة فى حجمها ونوعها ومدى اختلافها وتجديدها .

ومن ثم يقال : إن نظام التعليم ليس نظاماً يسعى لتكوين إنسان بمفهوم مجرد مطلق ، أو إنه نظام محايد ليس له علاقة بالنظم الأخرى سياسية واقتصادية واجتماعية ، لكنه يوظف فى جميع الحالات نحو المحافظة والتقليد واستمرار الأوضاع القائمة ، وقد يوظف نحو التجديد والتطوير فى تفاعله من الأوضاع القائمة ، سعياً نحو مستقبل متجدد منشود . وتتحقق أى من الوظيفتين الرئسيتين من خلال وفاق اجتماعى عام ، أو من خلال تدافع وتموج وتصارع ثقافى ؛ وصولاً إلى غلبة تيار معين ، يصبح سائداً وقادراً على توظيف نظام التعليم توظيفاً اجتماعياً يؤثر فى المستقبل القريب والبعيد فى صورة المواطن والوطن . وقد تشهد مسيرة النظام التعليمى فترات من الاضطراب

والتنازع حول توجهاته ومضامينه وآلياته حين لا تتضح الرؤية المجتمعية فى مجملها ، ومن ثم يفقد التوظيف الاجتماعى للتعليم فاعليته وكفاءته .

وشهدت ساحة الفكر التربوى والثقافى ، وبخاصة خلال الأعوام الخمسة الماضية (١٩٩٠ ـ ١٩٩٥) ، حوارات فكرية ساخنة احتشدت لها مؤسسات التعليم ومنتديات الثقافة ، وتزاحمت مقولاتها على مساحات الصحف والمجلات ، وفى أبحاث الندوات والمؤتمرات . وقد جاء هذا الزخم الفكرى انعكاساً لما يضطرب به المجتمع فى مصر وفى غيرها من أقطار الوطن العربى من مخاضات عسيرة فى مسيرته الحضارية والإنمائية ، وفى سعيه لاستشراف مستقبله ، تجاوزاً لتخلف سحيق .

وامتد جانب من الحوار ليشمل كثيراً من مجالات الحياة ، محدداً لأبعادها ، ومحللاً لأعماقها ، ومحاولاً تقديم البدائل التى تهيىء الحركة والتطوير والتغيير ، بيد أن جانبا من ذلك الزخم الحوارى قد انطلق من مصلحة فئوية ، أو من تحيز شخصى أو من توجه ماضوى ، أو من منظور تبريرى ، وهكذا اختلط بعض الحابل ببعض النابل . ونجم عن ذلك ضبابية فى الرؤى ، وقبلية فى النظر ، وأسطورية فى الفهم ، وعجز عن الفعل الرشيد المطرد فى نهاية المطاف .

ومن بين ما اختلط من أمورنا الفكرية التمييز بين الثوابت والمتغيرات ، والعلاقة بين الأهداف والوسائل ، وبين الاستراتيجى والتكنيك ، كذلك اختلطت تحليلات مصادر الأزمة الثقافية بين مسبباتها الداخلية وعواملها الخارجية ، وبين الأوليات والثانويات ، وبين الواقع والممكن والمنشود والمستحيل . وأثيرت قضايا حسمها التطور الحضارى ثم أقحمت لتناقش من جديد تحد مظلات وشعارات لاتنتسب إليها ، ولا تعترف بما حققه المجتمع من إنجاز وحركة فى فهم تلك القضايا . وفى هذا الصدد تم توظيف مواقع السلطة والحكم أحيانا ، وتوظيف تفسيرات دينية أحياناً ، كم تم النظر إليها من خلال ضغوط جماعات المصالح أحياناً أخرى .

ومع هذا الحوار الصاخب فقدت بعض القيم والمفاهيم الأصلية مصداقيتها أو غدا لونها باهتاً على الأقل ، واستيقظت أخرى كانت منزوية هابطة لتصبح فاعلة ومحركة . وظهرت مفردات ومصطلحات جديدة ، بعضها لم تعرفه لغتنا العربية أو جغرافيتنا

وتاريخنا الحضارى ، مبررة بالمتغيرات العالمية والعولمة فى نظام كوكبنا الجديد . وتجاوزت تلك المفاهيم الجديدة حدود الخصوصية الثقافية والهوية القومية ؛ لتعلن حتمية التكيف والاندماج فى النظام العالمى الجديد . وهكذا تداخلت عـ ة النفق الحضارى الطويل مع بعض الأضواء الساطعة والخافتة ؛ لتصبح مسيرة إلى الأمام عسيرة ومتعثرة . والحصيلة الراهنة أفكار متحجرة ومطلقة ، أو توجهات تفتقد البوصلة الهادية ، أو آراء لم تتبلور بعد ، أو رؤى مصابة بقصر النظر ، تتصارع فيما بينها ، كما تتدافع مع ومضات وإشراقات متناثرة هنا وهناك .

وقد حظيت ساحات التعليم وآفاق الثقافة بنصيبها من هذا الزخم الفكرى فى تناقضاته وتنازعاته ، وما يزال التلاطم فى أمواجه هادراً فى معظم الأحيان ، وإن تبدى هادئاً فى أحيان قليلة حين تلتقط الأنفاس . وليس غريباً أن تشهد مجالات التعليم والثقافة معارك من الصراع الذى تتشابك وتتقاطع خيوطه مع مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع بقبائله وشلله وتعدد أصحاب التحيزات والمصالح الذاتية ، إلى جانب رواد التغيير والتطوير والمصلحة القومية المشتركة .

وقد انطلق الحوار فى زخمه وصخبه من مقولة أن قضايا التربية والتعليم ينبغى ألايترك الرأى والقرار فيها للتربويين والمشتغلين بالتعليم وحدهم ، فى مقابلة لمقولة أن شئون الحرب يتوجب ألا ينفرد بها العسكريون وحدهم فى القرار والمسار . كذلك الشأن فى أمور الثقافة إنتاجاً وانتفاعاً (استهلاكا) وصيانة وحفاظاً ودفاعاً عن قيمها وخصائصها القومية ، حيث لم تعد مسئولياتها مقتصرة على من يندرجون فى تصنيف العاملين فى مجالاتها التى تدخل فى اختصاصات وزارات الثقافة أو الإعلام أحياناً . واقتضى ذلك المفهوم فتح أبواب الحوار للمشاركة الواسعة لغير تلك الفئات من المتخصصين والفنيين ، مما أتاح المجال لجماعات متنوعة الاختصاص ولأولياء الأمور وغيرهم ليعبروا عن آرائهم وتصوراتهم وانتقاداتهم لواقع المؤسسات التعليمية والثقافية ومجريات الأمور فيها ، بل إن انفتاح ذلك الباب الإعلامى قد مكن المتخصصين أنفسهم ـ على اختلاف مشاربهم ومواقعهم ـ من الإسهام بالرأى ، توضيحاً ونقداً وتصويباً واقتراحاً .

وإيماننا راسخ بأهمية هذه المشاركة العريضة لمختلف المنتجين والمنتفعين ولتنوع الآراء وتعدد التوجهات ، مما يثرى الفكر والفعل فى مجالى التعليم والثقافة . بيد أن تلك

المشاركة قد تنطلق أحياناً من تحيزات فئوية أو شخصية ، كما أنها قد لاتكون محيطة بما ينبغى الإحاطة به من البيانات والحقائق الراهنة ، هذا فضلاً عن أنه قد تطغى السياسة على الضرورات العلمية والفنية ، أو أنه يختزل الفهم وعوامل التطوير إلى منظور آحادى ، كالمنظور الاقتصادى أو المنظور الأخلاقى أو المنظور الإقليمى المحلى . ويبدو الرأى فى بعض الأحيان متأثراً بالخبرة التعليمية الشخصية التى مر بها صاحب الرأى ، مردداً مقولة (لقد تعلمنا بهذه الطريقة ، وقد أفلحنا ، فلماذا التغيير ؟) كأنما ليس فى الإمكان أحسن مما كان .

وفى هذا السياق من الحوارات التعليمية والثقافية تقع معظم مقالات هذا الكتاب ، حيث سعى المؤلف للإدلاء بآرائه وتحليلاته ونقده ومقترحاته ، مسهماً بذلك فى ساحة الفكر التى شهدتها الأعوام الثلاثة الماضية (١٩٩٢ ـ ١٩٩٤) . وقد ظهرت تلك المقالات والدراسات فى صحيفة (الأهرام) ، وصحيفة (الأهالى) وصحيفة (العربى) وفى مجلات تربوية وثقافية مثل (التربية المعاصرة) ومجلة (التربية والتنمية) ومجلة (الأهرام الاقتصادى) ومجلة (الهلال) . ولم يقتصر المؤلف فى معظم الحالات على مجرد إيراد المقالات ، وإنما أتبعها بذكر الظروف التى استدعت تحريرها وبتعليق وتداعيات وإضافات لمضمونها ، مما قد يكون معيناً للقارىء على الإلمام بامتدادات ودلالات تلك القضايا التى عالجها المقال الأصلى .

وقد تضمنت تلك المقالات وتداعياتها مساحة متنوعة من السياسات والإشكاليات والمواقف المرتبطة ببعض قضايا الحوار الساخن فى مجالات التعليم والثقافة والتى تظل مواقع لمزيد من التفكير والتقييم من خلال الممارسة . وهى جميعها مشتقة من السعى نحو تفعيل برامج التنمية البشرية ، تصب بطريقة مباشرة وغير مباشرة فى بناء الإنسان وتنمية طاقاته البدنية والعقلية والوجدانية والاجتماعية والروحية والسلوكية ، كما تصب فى تشكيل العلاقات بين الفرد والمجتمع وبين المجتمع والفرد .